وقفوا إلى جانبى

ثلاثة وقفوا الى جانبى ، وأخذوا بيدى فى مطلع حياتى الفنية ، ولعب كل منهم دورا عظيم الاثر فى دفعى الى الامام ، وفى تشجيعى على المضى فى طريقى .

وكان اهل قريتى هم اول اولئك الثلاثة ، لقد أخذوا يستقبلون محاولاتى فى نظم الازجال وقصائد الشعر ، بحب جم ، وسرور فائض ، وتشجيع كبير .. وكنت المح فى عيون أبناء قريتى ، ذلك الوميض الطاهر من الاعجاب والرعاية ، فاشعر بالفرح والازدهاء ، واحس كان المياه العذبة تسقى زهور امل فى مستقبل ادبى فنى .

وقد دفعنى ذلك التشجيع المتواصل من اهل قريتى ، الى تقديم روايات مسرحية من لون الدراما . وكنت ما زلت فى الخامسة عشرة من عمرى ، حين اقمت مع بعض اخوانى ، مسرحا فى قريتى منية النصر ، جعلنا قوائمه مجموعة من « البراميل » ، واستعملنا فى اضاءته المصابيح البدائية .

ولا انسى كيف أن اهالى القرية تحمسوا لدينا العمل حماسة باهرة ، فساهموا معنا بايديهم فى اقامة المسرح . كان بعضهم يترك عمله ومنزله ، ويأتى الينا متطوعا ليبنى ، ويحمل الخشب ،

obeikandi.com

ويدق المسامير ، ويربط الستارة ، ويقوم بتجهيز مصابيح الاضاءة .

واذكر اننا كنا بحاجة الى المزيد من الواح الخشب ، ولم يكن فى أيدينا مال يكفى لشراء ما نريد ، فعقدنا اجتماعا فى الليلة السابقة على اقامة المسرح وتقديم الرواية ، واقترحت فى ذلك الاجتماع ، أن نتوجه فى السر الى مقابر الاعيان ، وان ننزع من حجرات تلك المقابر ، بعض الواح الخشب .

واعترض أحد اخوانى على ذلك الاقتراح فقلت له ـ الاحياء أجدر من الموتى بالرعاية .. ونحن باستيلائنا على تلك الالواح لن ننتهك حرمة الموت ، بل سندفع عجلة الحياة .

وتم لنا بناء المسرح ، واقبلت عليه جماهير الفلاحين من كل القرى المجاورة .

وكنت اقوم فى الرواية بتمثيل دور خادم عليل يركله سيده بقدمه فى احد مشاهد الرواية . وكان والدى بين المتفرجين ، فلما راى زميلى الذى يمثل دور السيد يركلنى بقدمه وانا امثل دور الخادم العليل ، هب من مقعده ، وزعق بين الزحام يسب زميلى وينوعده!

ونجحت الحفلة التى قدمناها ، وكان بعض الطلبة يقومون بتسخيف ذلك المجهود وتحقيره ، وكان البعض الاخرون يقفون معنا ضد الفريق الاول .

أما الفلاحون فلم ينشق علينا منهم أحد ، وانما كانوا جميعا يمجدون عملنا ، ويمنحوننا كل مؤازرة وتعضيد .

لذلك ، لم أكن أخالط الطلبة كثيرا بعد تلك الحفلة ، وجعلت اصدقائى من العمال الزراعيين ، نسهر معا ، ونسمر ، ويشارك كل منا الاخر مشاكله ومشاغله .. وجدت فى قلوب الفلاحين كنوزا من المحبة ، وفى عقولهم كنوزا من الحكمة ايضا ، لم اجدها لدى الكثيرين من المثقفين !

ان اولئك الفلاحين ، يصلون الى الحقيقة من اقصر الطرق ، ولا يلفون ، ولا يدورون ، ولا يسفسطون ، فان نظراتهم واعمالهم وتصرفاتهم ، تغنى عن عشرات المحاضرات فى الحكمة وفلسفة الحياة ، وهم فى ذلك كله ، يستضيئون بتجاربهم الموروثة ، وتقاليدهم البسيطة .

انى مدين لاولئك الفلاحين بأول تشجيع لقيته فى حياتى الادبية ، الى جانب انى مدين لهم ايضا بالكثير مما لايتسع المجال فى هذا المقال لسرده او تحليله .

وثانى الذين وقفوا الى جانبى وشدوا ازرى ، هو استاذى العظيم المرحوم خليل مطران . جئت من الريف الى القاهرة عام ١٩٣٦ ، وقلبى تملؤه احلام عزيزة . كنت احلم بان اذيع اشعارى ، وان اقوم بتاليف روايات وقصص ، وان اساهم فى الحركة الادبية والفنية مساهمة ايجابية فعالة. كنت احلم بان ابلغ غاية القدرة على التعبير عن مشاعرى وافكارى، ولكن كيف السبيل ؟

لقد عانيت كثيرا من الحيرة والالم ابتداء من تلك الفترة ، وخالطت الادباء والممثلين ورجال الاذاعة والموسيقيين الناشئين والسينمائيين ، وجعلت أحاول العمل فى كل ناحية ، فى الاذاعة ، وفى الفرق المسرحية التى تجوب القرى . وقدمت قصائدى الى مجلات الرسالة التى كان يرأس تحريرها الاستاذ احمد حسن الزيات ، والثقافة التى كان يرأس تحريرها المرحوم الدكتور احمد أمين ، والمقتطف الشهرى ، ولميرها .. واخذت تلك المجلات الادبية المرموقة المكانة فى ذلك الحين ، تنشر قصائدى . وكان هذا يمنحنى عزيمة وطاقة كبيرتين على مواصلة طريقى . كما رحت أقدم بعض

الروايات من محطة الاذاعة . وتقلبت فى اعمال كثيرة كان اغربها انى كنت انظم الاغانى والاشعار ، وابيعها الى اخرين ، ينشرونها بأسمائهم هم !

كنت لا اعرف ما يجب ان اقراه ، ولا ادرى طريقا محددا يجب ان تمضى فيه خطاى ، حتى قابلت أستاذى العظيم خليل مطران ..

ولم يكن خليل مطران أستاذا لى وحدى ، فالحقيقة انه كان كما قال الدكتور طه حسين فى مهرجان تكريم الشاعر عام ١٩٤٧ « زعيم الشعر العربى المعاصر ، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين ، لا يستثنى منهم أحد .. »

والحق أن الدكتورطه حسين بتصويره لمطران فى تلك الصورة السالفة ، كان يتقدم على جميع أقرانه وزملاء عصره ، ويتخطاهم فى فهمه وتقديره لاثر مطران، ويعبر فى رسالته تلك عن جانب من رأى فنانى المستقبل فى ذلك الحين .

كان مطران رائد المدرسة الرومانتيكية الثورية فى الشعر العربى . ولد فى مدينة بعلبك بلبنان عام ١٧٨٢ ، ودرس الاداب والفنون ، وامتزج بقضية الشعب، وامتلأ قلبه بحب الدفاع عن الحرية ، وجعل يساهم فى الدعوة الى مكافحة حاشية السلطان عبد الحميد ، ويعبر عن تيار الحماسة ضد الاستبداد العثمانى ، فضاق بنشاطه الاتراك ، وقررت عصابتهم ان تقتله .. وكان مطران فى الثامنة عشرة من عمره ، حين لوثت سكون الليل أقدام السفاحين العثمانيين ، وهى تمضى بهم الى بيت مطران ، وما هى غير لحظات حتى صوبوا من نافذة الغرفة التى ينام فيها الشاعر الشاب ، بنادقهم ورشاشاتهم ، وأطلقوا منها سيول الرصاص !

وخاب أمل القتلة فى الصباح ، حين سمعوا أن خليل مطران لم يكن نائما فى غرفته ، وانما بات تلك الليلة فى منزل آخر .

ولم ترهب جرائم أولئك قلب الشاعر الباسل ، بل كان يصدح بشعر الحرية الذى يهزم البارود ، وينسف المعاقل ، ويزرع الرعب فى السفاكين . كان ينظم قصص البطولة وملاحم الكفاح مستخرجا اياها من طوايا التاريخ ، مستنهضا بها قوى الشعب ، رامزا بها الى الطغاة الذين لا بد أن ينهزموا ، ويتساقطوا تحت أقدام المناضلين . وما قصته المنظومة : « فتاة الجبل الاسود » غير واحدة من تلك الاعمال التى ستبقى صورا خالدة للكفاح من أجل الحرية فى كل زمان وفى كل مكان .

على أنى لست هنا بصدد دراسة مطران رائد الرومانتيكية الثورية فى شعرنا العربى وأستاذ الفنانين الاحرار فى وقت كان فيه الشعراء ينظمون نشوات الخمر ويتفرغون لمدائح القصر !!

لست هنا بصدد دراسة مطران الذى يسترخص كل شىء فى سبيل دفاعه عن الحرية وهو القائل عام ١٩٠٩ لاولئك الذين وقفوا ضد الشعب يحصدون أقلام كتابه ويكممون أفواه شعرائه والناطقين بلسانه :

شردوا اخيارها بحرا وبرا
واقتلوا احرارها حرا فحرا
انما الصالح يبقى صالحا
آخر الدهر ويبقى الشر شرا
كسروا الاقلام .. هل تكسيرها
يمنع الايدى أن تنقش صخرا
قطعوا الايدى ، هل تقطيعها
يمنع الاعين أن تنظر شزرا
اطفئوا الاعين ، هل اطفاؤها
يمنع الانفاس أن تصعد زفرا
اخمدوا الانفاس، هذا حسبكم
وبه منجاتنا منكم .. فصبرا

لست هنا بصدد دراسة مطران الشاعر الثائر على الطغيان فى كل زمان ومكان ، ولا أنا بصدد تحليل فنيته وتجديده ثياب شعرنا ، وابتداعه الاشكال والصيغ الفنية التى زودت شعرنا العربى بثراء أى ثراء ..

ولكنى أحاول أن أقوم بتعريف سريع لمطران الشاعر الثائر الفنان .

فشلت خطة العصابة العثمانية فى اغتيال مطران الذى لم يكن من الطبيعى أن يسلم عنقه للسفاكين مرة أخرى ، فرحل ألى باريس بعد أيام ، وهناك .. كان شعلة متقدة من النشاط ، عكف على التزود بآثار الادب الفرنسى ، وعلى العمل ضد عصابات العثمانيين دون كلال .

وضاق الاتراك من جديد بنشاط الفنان الثائر فى باريس ، وجعلوا يحاربونه فى كل مكان ، وضيقوا عليه جميع السبل ، فيمم مطران شطر وادى النيل ، واستقر فى مصر منذ عام ١٨٩٢ حتى نهاية ايامه ، يدعو الى الفن المرتبط بالحرية ، ويقيم اسس الشعر الثورى الحديث .

قدمت فى هذا المقال ، انى جئت الى القاهرة عام ١٩٣٦ وكنت فى السادسة عشرة من العمر ، وكنت أطالع أى كتاب تقع عليه عيناى ، فلم أكن أعرف برنامجا يمكن لى أن أتبعه فى المطالعة . وظللت سنين بعد ذلك أسير الحيرة والتوزع والالم .. ودهمت حياتى الخاصة عدة كوارث أودت بوالدى وامى ، ووجدتنى عام ١٩٣٨ وحشا خرافى التكوين ، بلا أهل ، بلا مال ، بلا عمل . وكان يمكن أن تمضى حياتى فى طريق اخرى ، لولا اننى التقيت بأستاذى العظيم خليل مطران .

أذكر أنى حملت اليه بعض قصائدى فى المقابلة الاولى ، وكانت الدنيا تضيق بى على اتساعها ، وكنت أنظم الشعر أصور به مواجعى وآمالى ، فقابلنى وعلى وجهه ابتسامة ترحيب ، وفى عينيه حنان أبوى لا يستطيع تعاقب السنين أن ينسينى لمعته الظاهرة .

كانت مقابلتى لمطران فاتحة الطريق الى تثقيفى ، فقد تعهدنى برعايته الادبية ومنحنى خبرات واسعة ، وكان يمدنى بالكتب المختارة ، فى الشعر ، وفى القصة ، وفى الرواية ، وفى المسرحية ، وفى الموسيقى ، وفى علم النفس .. وفى الفلسفة .

وكنت بين الحين والحين ، أقوم بزيارته ، فيناقشنى فيما طالعت ، ويمدنى بقائمة جديدة من الكتب ، وهكذا .

ولم يقتصر أثر مطران فى حياتى على وضع برنامج لمطالعاتى فقط ، وانما امتد أثره الى تكوينى الانسانى والفنى جميعا .. كنت أراه يترك عمله ومنزله وينسى مواعيده ، ليصل رزق انسان فقير ، ليلحق طالبا بمدرسة ، ليقوم بتوظيف متعطل ، ليعاون أرملة طاعنة فى السن ، ليفرغ جيبه فى يد سائل ، لينقذ مريضا ، ليدخل السرور على قلوب الاطفال فى أسرة بائسة يوم عيد !!

وكان رحمه الله ينقد أعمالى التى أقدمها اليه نقدا يجلينى ، ولا يقضى على ثقتى فى الوقت نفسه ..

أذكر انى اسمعته ذات مرة احدى قصائدى ، وكنت أقول فيها ـ « امشى ونار الخوف بين جوانحى » ، فسألنى هل انت اذا ساورك الخوف ، تشعر بالبرودة أم بالدفء ؟

قلت ـ بالبرودة ..

قال ـ اذن .. لا يصح أن تقول « ونار الخوف بين جوانحى » !!

وهكذا ، كان مطران استاذى ومعلمى كان ثانى الذين وقفوا الى جانبى ،

ودفعونى الى الامام ، وقد استمرت صلتى به منذ ذلك الحين ، حتى انطفأ سراج حياته النبيلة الباسلة التى تشع بالمحبة فى كل زمان .

اما ثالث الذين شـــــدوا ازرى ، وعاونونى على المضى فى عملى الادبى والفنى، فقد كان كامل الشناوى .

والحقيقة ، ان كامل الشناوى قام بدور ايجابى فعال فى تقديمى شاعرا وكاتبا وقصاصا الى جماهير القراء .

ما زلت أتذكر حتى اليوم ، أثـــر المقابلة الاولى التى تمت بينى وبينه ، وما زال منها عبير الود فى قلبى .. لقيتـــه وأنا احسب انه لا يعرفنى ، فقدمت اليـه نفسى ، فاذا به يخف مرحبا بى ، ويذكر انه طالع قصائدى فى مجلات الرســـالة والثقافة ، ويطلب منى أن أعيد عـــلى مسامعه بعض شعرى . وقد تمت مقابلتى لكامل الشناوى وانا متعطل ، وفى نفسى مرارة وألم ، وأرى الآفاق أمامى كأنهـا مسدودة .. كل الآفاق .. فعاوننى كل العون ، ووقف الى جانبى ، يرفـــع من معنويتى ، ويحفظ لى كرامتى ، ويدفعنى بكل حماسة وايمان .

لقـد كنت أرى فى مقلتيه أضـــواء الاشفاق من ان تحطمنى ظـــروف الحياة تحطيما ، فجعل من منزله منزلا لى ، ومن مكتبته مكتبة لى ، كما جعل من نفســه ـ وهو الشاعر القـــادر ـ راوية لبعض أشعارى فى المحافل والمجالس والندوات .

ولا انسى تلك الليـــلة التى توجهت فيها الى زيارته فى جريدة الاهرام ، وكان يجلس معه احد وزراء العهد المـــاضى، فقدمنى كامل الشناوى الى ذلك الوزير .

وبدا أن ذلك الوزير لا يعرف اسمى، فحمل عليه كامل الشناوى حملة ساخرة، خجل بعدها الرجل من نفسه .

ان حمـاسة كامل الشنـاوى للفـن وللفنانين ، كانت ، ولا تزال نابعـة من ايمانه العميق بضرورة حماية الفنـان ، واتاحة الظروف المناسبة لانعاشه وتنميته وازدهار فنه .. ولقد كانت حماسته لى ، درعا صانتنى ، ومنحتنى القوة على السير قدما فى طريق الادب والفـــن .. كنت كالموشك على الغـــرق ، وكان كامل الشناوى هو زورق النجاة .. كان هو أول من ألحقنى بالعمل فى الصحافة ، سواء فى الصحف التى كان يرأس تحريرها أو الصحف الاخرى . وكان دائما حسن الظن بقدرتى على العمل ، ممـــا ملأنى حماسة لعملى الادبى والفنى . وكنت كلما أصيب نجاحا ، ألمح فى عينيـــه وميض السرور يكاد يزدهى به أمام الاخريـــن ازدهاء الاستاذ بتلاميـــــذه ، والاب بأولاده .

وكان كامل الشناوى وما زال ، يفيض قلبه بالمغفرة .. فكثيرا ما كنت أختلف معه وأراه كما عهدته يبتســم فى حب وغفران ، وهو يهتف بصـــوت تترقرق فيه المودة والحنان : آه يا مجنون !

ومعذرة اذا لم أستطع فى هذا المقال ، ان أوضح حقيقة الدور الذى لعبـــه فى حياتى كامل الشناوى ، ولعلى أجد مجالا واسعا لتوضيح ذلك جميعه ، فى فرصة أخرى ان شاء الله .

انى اكتفى بالقول ان ثلاثة وقفوا الى جانبى ، وشدوا ازرى ، وعـــاونونى فى مطلع حياتى على ان انمو . كان اولهـــم هو الشعب ، وثانيهم هو خليل مطران وثالثهم كامل الشناوى .

عبد الرحمن الخميسى

فرصة لن تتكرر !

بيوت مصر

تقسيم جديد بارقى منطقة بالهرم

أراضى للبناء فى مكان كالجنة ...

بجوار أبو الهول الأهرام ومعهد التربية البدنية

تقدمها لكم **بالتقسيط المريح**

شركة الأهرام للمقاولات العمارية وصناعة الطوب

عكاشة نقودى واخوته

١٩ ميدان السيدة زينب تليفون ٢٣٤١٤

٣٧٣ شارع الاهرام امام الاوبرج تليفون ٨٩٦٠١٩

بادر وعاين قبل فوات الوقت !

مدير عام : عكاشة نقودى

opelkan.com